

## العامل الاقتصادي في التاريخ

خلاصة مذهب كارل ماركس

ماركس : لا تسرع يا هررتزل . ولماذا تكتفي بذكر « البيئة الجغرافية » ؟ وما يمنع تعيش القامة بحكم الغذاء كما تعيش بحكم الأقليم أو السلالة ؟ فقد راضني ان بلغ البحث هذا الحد ولم تذكروا العامل الاقتصادي في تفسير التاريخ

فولتير [ لا فاضول فرنس ] : من هذا الأسود العارضين — اناطول [ فولتير ] : هو سفراط التكن السكرية « كارل ماركس » . وقد ألف كتاباً هائلاً ، برهن فيه على ان القوي يهب الضيف — فولتير : اكتشاف جديد حقاً ! أفلا يخبرنا كيف يمنع التعدي ؟ اناطول : بقيام الضيفاء وتعلمهم على القوي — فولتير [ ماركس ] : ما هي نظرتك ؟

ماركس : لا اعرف نظرية ابسط منها ، وهي : « العامل الاساسي في التاريخ ، في كل زمن ، هو العامل الاقتصادي . فطرائق الاتاج والتوزيع ، وقمة الثروة واستهلاكها وعلاقة العامل بمخدمه ، والحرب بين طبقات الاغنياء والفقراء — هذه هي الشؤون التي تبين في النهاية ، كل وجوه الحياة — دينية وادبية وفلسفية وعلمية واخلاقية وفنية . فنشؤون الاتاج هي نسج المجتمع الاقتصادي وهي الاسس الصحيح الذي عليه يناد البناء الاعلى شرعياً وسياسياً ، والهيا تنسب صور الشعور الاجتماعي المقررة

فولتير : هذه صورة مجردة فاكاد اصاب بصداغ منها فهلاً زدنا ايضاحاً

ماركس : حسن جداً سأناثر تاريخ الانسانية باجمه ، من وجهة مذهبي

اناطول : واني لوانق انك تذكر حكايتي عن الملك والمؤرخين

ماركس : اولاً : لا اقم التاريخ الى قديم ومتوسط وحديث . فذلك تقسيم الاجيال الوسطى . بل اقسمه الى : عصر المراعي وعصر الصيد : عصر الزراعة : وعصر الصناعة اليدوية : وعصر الصناعة الآلية . فكلواث العنصر هي اقتصادية لا سياسية هي الثورة الزراعية -- الانتقال من الصيد الى الحراثة -- والثورة الصناعية -- الانتقال من الصناعة اليتية الى نظام العامل لا معركة مرانن ، او مصرع زولبون قبصر ، او الثورة الفرنسية فولتير : يعني صور تغير اتفاقية والثراء حصراً فعصرأ

ماركس : وعلاوة على ذلك أن الدوافع الاقتصادية هي التي تعين نهوض الامبراطوريات وسقوطها . أما الاحواز الاخلاقية والاجتماعية والسياسية فتأثيرها ضئيل في ذلك . واما الهتك والترف والتهديب فتنتج لا اسباب . ومحت كل شيء طيحة التربة ، هل هي تصلح للمحرثات ، او للمرعى والصيد فقط ؟ وهل فيها مصادن نافعة ؟ فقد صارت مصرقوبة بسبب حديدتها ، وبريطانيا قديماً ، بسبب تصديرها ، وحديثاً ، بسبب لحوامتها وحديدتها . وقد اضعف ائينا نفاذ مناجم الفضة ، وشدّد ذهب مكديونا سواعداً فيليب والاسكندر . وحاربت رومية قرطجة بسبب مناجم اسبانيا الفضية ، وانحطت لما فقدت اراضيها خصيبها اناطول : لا اعرف الا قليلاً من التاريخ والفلسفة والآداب وكلها عديمة النفع . على اني استطيع ان اظاهرك بما عرفته من حروب عصري الخاص . فقد نشبت كلها بسبب مصادر الثروة الطبيعية ، او انتهاز الفرص الصناعية في البلدان الاجنبية

ماركس : شكر أشكراً . ذكرت « انتهاز الفرص الصناعية » ، فهذه ايضاً كان لها شأن خطير في التاريخ . لماذا حارب اليونانيون طروادة ؟ لأجل امرأة خليعة ؟ الامر بيد عن ذلك . واذا كانت « هيلانة » قد وجدت حفاً فانها لم تكن الا عطاء لسراغراض الاقتصادية . كان اليونانيون يرمون الى اقاصم منافسهم ، الفينيقيين وحلفائهم ، عن مدينة تسود الطريق البحرية الى اسيا — ولهم جيمس : انلم يسير وجه هيلانة الجليل الف سفينة الى الحرب ؟ ماركس : كلا ، على ما اعلم . وانت تعلم طبعاً ان « تمسكليس » بنى الاسطول لدفع « زركيس » نصار قاعدة لقوة ائينا التجارية في القرن الخامس ق . م . وسكنتها اموال المعاهدة « الدبية » من تزيين الاكروبولس بالهاكل . فالذهب المسروق انشأ هذا الفن المكمل . واكثر الصور التي اشهرت بالفن تلا حشد الثروة الوطنية . ولكن ائينا انحطت باعتمادها على الطعام الوارد من الخارج . فكل ما كان على سبطا لقهرها انما كان حصرها لمنع الوارد عنها . فجاعت ائينا ، وسلمت . ولم تنهض بعد ذلك . ثم لاحظ كيف حال استبعاد الصناع الاثنيين دون الابداع الصناعي والارتقاء . وكيف حال استبعاد المرأة دون الحب الفطري الطبيعي ، فاسفر عن الملاقات الجنسية الشاذة التي تأثر بها النفس الاثني . ان طريقة اتاج الاشياء المادية تعين صفة الحياة العامة ، اجتماعية وسياسية وروحية . يظن الفرد انه قد ابرز بالنطق والتفكير ، نظامه الفلسفي ، وشموه الادبي ، وواجباته الدينية ونباتة الحرب ، وامتيازه الفني غير عالم ، الاحوال الاقتصادية المستترة من القوة في تكوين كل فكر في نفسه . مونتسكيه : وكيف تطبق مذهبك على روما ؟

ماركس : كانت روما في الحقيقة شركة لاختلفاف البدان . ولم يكن في الدنيا سادة اكثر

قسداً وقوة من الرومانيين . فاذا نجح عن ذلك ؟ افلس الفلاحون تدريجياً فاشترى الاغنياء اطيانهم . واستوردوا العيد لحرثها . قهاون هؤلاء في عملهم . فنفظت الاطيان ، واضطرت روما ان تعتمد على الاتوات الواردة من الخارج . فزقتها ثورة الميدالكبرى . واخذت التجارة ، بين اوربا والشرق ، تتحول عنها تدريجياً الى القسطنطينية . قمت هذه وضعت تلك بوصويه : لا يسلك املكاران الديانة ، كانت العامل التاريخي الاقوى في الصور الوسطى ماركس : هذا نظر سطحي . فقد بدأت قوة الكنيسة بحاجة شمس مهدم مستعبد ، الى التزمية والرجاء . قاينت قوتها على الجهل والحرافات التي تصحب الفاقة والارتداد من الحياة المدنية الى الحياة الريفية . وابتدت سقامها بالهبات والاقواق مثل « مبة الملك قسطنطين » والمشور والضرائب وغيرها التي جعلت ثلثي اراضي اوربا البور ملك الكنيسة . هذا هو اساس قوتها الاقتصادية . وهكذا ترى كل مشاهد الاحيال الوسطى لها اسبابها الاقتصادية . فالحروب الصنيية مثلا اريد بها استرداد طريق التجارة من ايدي غير المسيحيين . وكان الاحياء ( النلمي والفلسفي في ايطاليا ) ثمره حشد الذهب الذي دره على ليباردي مرور الطريق التجارية بين اوربا والشرق ، بثور شمالي ايطاليا . وبرز الاسلح لما عزم امراء المانيا على الاحتفاظ بالاموال من التشرّب من جيوب رجاياهم الى خزان الفاتيكان

بوصويه : انك غطىء . خطأ قادحاً

ماركس : وحدثت الثورة انفرنسية ، لا لأن اسرة بوربون فسدت ، ولا لانك — ياميو قولير — كتبت كتابات نهكية فاقية ، بل لانه في خلال ٣٠٠ سنة ظهرت طبقة البورجوى (الوسطى) الجديدة من التجار . وبلت مستوى الارستقراطيين ارباب الاطيان . ولانهم اخيراً جموا نزوة اوفر ، وقوة اعظم ، مما كان لاولئك السخفاء المتحلين بالذهب ، في بلاط لويس السادس عشر . فالقوة السياسية تنبع ، عاجلاً او آجلاً القوة الاقتصادية . وقد ابان « هرفنقن » ذلك قبل سنين بقوله « يتوقف شكل الحكومة على نظام توزيع الاراضي . فاذا سلك اكثرها رجل واحد فتلك هي الحكومة الملكية . واذا تملكها افراد قلائل ، فهي الحكومة الارستقراطية . واذا تملكها افراد الشعب فهي الديمقراطية »

غرنت : انه في ذلك على جانب كبير من الحق . وقد يكون اختلال النسبة بين سكان المدن وسكان الارياف من اسباب الديمقراطية في اميركا

ماركس : ولماذا اكتشفت اميركا ؟ . الاجل المسيحية ؟ ( هذا مزعم كوابوس ) كلا . بل لاجل الذهب . ولماذا اتزعجت انكثرا من فرنسا واسبانيا وهولندا ؟ لانها تملك من الذهب ما مكها من بناء اسطول اعظم من اساطيلها . ولماذا ثارت الولايات المتحدة على

الحكومة الانكليزية ؟ لان شيئا لم يشأ يدفع ضرائب غير مقبولة ولانه رام وضع حد لا استبداد الانكليز الباطنين ايديهم على الاراضي بفرمان ملكي. ولانه رغب في التجارة باليد والحرية بدون عائق وان بني ديونه بقدر ارحص . ولهم جيمس : ما هذا ؟

ماركس : اكيد يا سيدي ، انت عالم بالابحاث التي قام بها مواطنك الاستاذ «يرد» ميتا الاسباب الاقتصادية التي قام عليها دستور اميركا كما انك عالم بديموقراطية «جرسن» . ألم تقرأ «دانيال وبستر» ؟ قل خطيبك البليغ هذا «كان اسلانا في نيويورك في مستوى واحد باعتبار المقار . وقضت الحالة باعادة قسمة الاراضي . ويجدر بنا ان نقول ان هذا العمل قرر استقبال حكومتهم فقد قررت شرائع الملكية الاساسية صفة مناشئهم السياسية... فالحكومة الحرة لا تلبث طويلا اذا كانت الشرائع تؤدي الى حشد الثروة في ايدي افراد قلائل وتجعل الجمهور صفر اليدن . في حال كهذه يثور الجمهور على حقوق الثروة ، والا تحمكت فيه الثروة وسدت منافسة ، فلا يبش الاقتراح العام طويلا في هيئة لامساواة بالثروة فيها»  
فولتير : ذلك كلام بليغ منكما

اناطول : وفيه خطأ واحد من نقطة لظن ماركس . وهي ادعاء الخطيب وبستر ان الشرائع تخلق التعبيرات في توزيع الثروة . فاذا كان ذلك كذلك فنظريتك في طريق الضلال . لانك توقع ان الاحوال الاقتصادية تعين النظم السياسية ، وان الثورة لا تطلع الا اذا كان ظهيرا جمهور قبض على اعنة القوة الاقتصادية . افلا تدحض رأيك هذه الثورة الروسية ؟  
ماركس : كلا . بل انا ادحض الثورة الروسية . فاما ان يلتوي الشكل السياسي تدريجيا او ينصف امام الحقيقة الاقتصادية . فان ثورة المال في بلد زراعي لا بد من ان تنشئ عاجلا او آجلا ، حكومة تظاهر بتأييد حقوق المال ، وتكون في الحقيقة آلة في ايدي ملاك الاطيان  
اناطول : اخاف ان هؤلاء البلاشفة ليسوا ماركسيين حقيقيين

ماركس : وانما اقول اني لست ماركسيا

فولتير : الا يظهر لك يا مسيو ماركس ان الدكتاتورية العسكرية قد تمكن من حفظ مركزها بقوة شديدة ، ولو لم تكن عملة للقوة المالية ؟ ماركس : ذلك الى حين فقط  
اناطول : لا ادري اذا كنت تعرف ما تدعوه ، نحن المحدثين ، بتحديد النسل . واطن انك لم تجربه . وهو بالنتيجة يهب للكثيرة الكاثوليكية فرصة سانحة . فانها بحكمها القويمة تحظر تحديد النسل بين المؤمنين ، وتنتظر ريثما يرد اليها تافص المواليدين في المانيا واميركا . فاذا فوجئت سياسة الكنيسة وقضي على آثار الاصلاح الديني وعهد الاستتارة بتحديد النسل افلا تعجب ذلك حادثا خطيرا ؟ وانت ترى انه فلما يقع تحت تضبير التاريخ تصيرا اقتصاديا .

فقد نحتاج الى تفسير بيولوجي للتاريخ

ماركس : انك محطىء يا سيدي . فما هي اسباب التمدد التوسل ؟ هي اسباب اقتصادية كقلاء اسعار المعيشة ، وازدحام سكان المدن ، وشرايع الاراضي كما هي عندكم ، التي تجبر الاولاد على ترك وصية بتقسيم الاراضي بين اولادهم

غرنت : ولكذلك تسلم على كل حال ، بأن العامل الاقتصادي راجح على العامل الاقتصادي ماركس : كلا غرنت : كيف نعلم تغلب الشماليين على آسيا وبعاداً ؟

ماركس : بمجرد سبقهم الى الثورة الصناعية . فانتظر خروج قومك الشماليين من آسيا متى صارت الصين بلداً صناعياً غرنت : ولكن كثيراً ما رأيت مجموعاً من الشعب في اضراب العمال وفي انتخاب الرئيس ينقسمون اتولوجياً لا اقتصادياً

ماركس : الافراد والمجموع يتحركون غالباً بمواسم غير اقتصادية ودينية واثولوجية ووطنية تاسلية . فإذا نظرنا الى عمله من ناحية اخرى في توجيه التاريخ وجدنا ان الزعماء رجال يشعرون بانصلحة الاقتصادية شعوراً تاماً . هل كان السياسيون ، الذين ينشأوا بالجنود الى ساحات القتال ، بالخطب الحربية والموسيقى ، خالين من الحركة الاقتصادية ؟ يقولون ان كولبوس أم الهند يجلب اللباب متصرين جداً . ذلك ممكن كل الامكان ، مع انه بعيد عن الاحتمال ان يكون في رأس ذلك الشيخ فكر كهذا . ولكن اتظن ان فردينند وازابلا امدهاء بالمال لاسباب كهذه ؟ فلافراد قد يمتلون لحركات غير اقتصادية ، فيضحون بانفسهم لاجل اولادهم وذويهم وآلهمهم ، ولكن هذه الافعال لا خطر لها في قيام الامم وهبوطها

وليم جيسن : بسرتي ان اسمع ذلك . فقد كنت اعتقد ان للقوات الاديوية اثر في التاريخ ، كقواته النخاسة بزطامة «ولبرفورس» و«جربسن»

ماركس : لا قوة اديوية في التاريخ . فالعوامل الاقتصادية كاملة وراء كل حادثة عظيمة . ان جربسن لم يتقدم في حله على النخاسة لما اقتصر على الدعوة الاديوية فقط ولما اعلن لتكنل تحرير العبيد كان ذلك تديراً جريبياً يراد به اضافة الجنوبيين . وقد قال صراحة انه كان يتركهم عبيداً لو ادى ذلك الى السلم . فأراد الجنوب الاتصال لان الضرائب اضررت به بعد ما فقد كل امل في احراز الاكثوية في الكونغرس . وأراد الشمال ان يظل الجنوب سوقاً لعماله ومصدراً للقواد الاولية . وكانت النسوى الروحية من الجانبين ، كالتستربورق التي . فالفكرة الروحية في كل حادثة تاريخية ليست الأ حاجة مادية تتحلل سيرا نغريباً خادعاً هو الرقبة الاديوية . اناطول : اتقول ذلك في اغراض الاشتراكية ؟

منا فباز

ماركس : نعم اناطول : واأسفاه